لمحات نقدية
في نص شعري لعمر بن أبي ربيعة
(٢٣ - ٩٣) هجريه

للاستاذ الدكتور/ علي محمد طلب
أستاذ الأدب والنقد
وعميد كلية اللغة العربية بأسيوط

التعريف بالشاعر وشعره [١]

هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن حذيفة بن المغيرة من مخزوم بن يقظة بن مرة، فهو شاعر قريش من أشراف القوم وساداتهم .

كان جدّه أبو ربيعة يسمى ذا الرمحين لطوله، وكان يُقال : كأنه يمشي على رمحين وقيل: إنه قاتل يوم عكاظ برمحين فسمي ذا الرمحين لذلك .

---

(١) انظر ترجمه الشاعر في: الأعلام للزركلي ٧١٧/٢, مهذب الأغاني للشيخ محمد الخضري ٢١١/٦ وما بعدها، الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٥٧/٢ وما بعدها، شاعر الغزل للأستاذ عباس العقاد ص ٦ وما بعدها ط دار المعارف ١٩٥١، الأدب العربي وتاريخه للأستاذ محمود مصطفى ص٢٩٠ وما بعدها ط الحلبي ١٩٣٧م، التطور والتجديد في الشعر الأموي للدكتور / شوقي ضيف ص ٢١٩ وما بعدها ط دار المعارف بالقاهرة، الشعر والغناء في المدينة ومكه لعصر بني أمية للدكتور / شوقي ضيف ص ٢٣٩ومابعدها ط دار المعارف بالقاهرة .

وكان اسم عبد الله بن أبي ربيعة فى الجاهلية بُجَيرا فسماه الرسول صلى الله عليه وسلم عبد الله ،وكانت قريش تلقّبه (العِدْل) لأن قريشا كانت تكسو الكعبة فى الجاهلية بأجمعها من أموالها سنة ، ويكسوها هو من ماله سنة ،فأرادوا بذلك أنه وحده عِدْل لهم جميعا ، وفيه يقول ابن الزَّبَعرَى :

بجيرُ بن ذى الرمحين قرّب مجلسى ... وراح علىّ خيره غير عاتم

وكان عبد الله من أشراف قريش وأثريائهم ،وكان يتجر الى اليمن فى تجارة واسعة ،وكانت أمه عطّارة يأتيها العطر من اليمن واسمها أسماء بنت مخرمة، وقد تزوجها هشام بن المغيرة أيضا فولدت له أبا جهل والحارث بن هشام فهى أمهما وأم عبد الله وعياش ابنى أبي ربيعة.

ولقد ولد الشاعر ليلة قتل الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأربع بقين من ذى الحجة سنة٢٣هـ, ولعل هذا هو السبب فى تكنيته بأبي الخطاب، وكان إذا جرى ذكره فيما بعد بين أهل التقوى قالوا فى حديث ولادته : "أىّ حق رُفع وأىّ باطل وُضع".

ولقد نشأ عمربن أبي ربيعة نشأة كلها ترف ونعيم يتقلب فى ثراء أبيه وغناه الواسع ، فكان يلبس البرود اليمانية ويمتطى

العتاق المحلاه بالذهب والفضة ، ويسير في كوكبة من عبيده وأتباعه ، وكان فتى جميلا يرجّل شَعْره ويعطره وكان حلو العشرة جذاب الحديث خفيف الروح ، ولا عمل له إلا إمتاع نفسه بتلك الثروة الواسعة فى بيئة مُلئت بالترف ، وجمعت أسباب اللهو من جمال وغناء وفكاهة ، ولذلك هيأته هذه النشأة الفاخرة لقول الشعر والنبوغ فيه ، وبخاصة هذا النوع الذى اختص به وهو الغزل ، فالغنى وفراغ البال وأنواع اللهو إلى جانب ما طبع عليه من ظَرْف وحلاوة شمائل ورقة عاطفة وخفة روح ، أضف الى ذلك ملكة الفصاحة التى نمتها قرشيته وعربيته الخالصة .

ولاننسى – الى جانب هذه البيئه – العصر الذى عاش فيه ابن أبى ربيعة ، فقد كان عصره عصرا غزليا فى جميع أطرافه وربما عيب على الرجل أن يتجافى عنه ويتوقر منه ، فما من عالم ولا فقيه ولا أمير ولا سرى فى هذا العصر الا كان له من رواية الغزل والاستماع اليه نصيب موفور ، وقد ساعد هذا فى ذيوع شعر الغزل وشهرة الشعراء الغزلين فى هذا العصر .

ونرى شاعرنا عمر بن أبى ربيعة فى هذه البيئه المترفة المنعمة الباذخه فتى فارع الطول غض الإهاب ممراح الشباب حلو

الاشاره عذب البيان يطوف بالكعبه ينسب بالغوانى ويـــترنم بالأغانى ويشبب بالجوارى ، ويترقب موسم الحـــج ليتغـــزل بالرائحات والغاديات ،وربما بلغهن من غزل عمر شـــىء أو أشياء فأقبلن عليه وتعلقن به وسررن منه

وربما لم يبلغهن شىء من غزل عمر ، ولكنه ظل يذكرهـــن فى شعره ، على الرغم من خفرهن وحيائهن فى صراحة وجرأة لا نظير لها .

ومن شعره الغزلى قوله فى صاحبته هند :[1]

ليت هند أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما نجد

واستبد ت مرة واحدة ... إنما العاجز من لايستبد

ولقد قالت لجارات لـهـا ... ذات يوم وتعـرّت تبـترد

أكما ينعتنى تبصرننـى ... عمركن الله أم لا يقتصد

فتضاحكن وقد قلن لها ... حسن فى كل عين من تود

ولا يبالى هذا الفاسق أن يصرح بما يجـــرى داخـــل الحـــرم الشريف من تصديه للنساء ومطارحتهن الغرام ، أو يحكـــى مطاردة النساء له فى هذا المكان المقدس ،

١-ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٥٣ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م .

ومن ذلك قوله :[١]

أبصرتها ليلة ونسوتها ... يمشين بين المقام والحَجَر

بيضا حسانا خرائدا قُطُفًا ... يمشين هوًا كمشية البقر

قد فزن بالحسن والجمال معا ... وفزن رسلا بالدل والخفر

قالت لترب لها تحدثها ... لنفسدن الطواف فى عمر

قومى تصدى له ليعرفنا ... ثم اغمزيه يا أخت فى خفر

قالت لها قد غمزته فأبى ... ثم اسبطرت تسعى على أثرى

ولقد شبّب ابن أبى ربيعه بكثير من النساء[٢] مثل زينب بنت موسى الجمحية وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وكلثم بنت سعد المخزومية ونبابة بنت عبد الله بن العباس امرأة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، كما شبّب بالثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أميه الأصغر وهند بنت الحارث المرية ، وشبّب برملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية وغيرها من النساء والجوارى .

١- المصدر السابق ص ٨٧ .

٢- استيقنا أخبار عمر بن أبى ربيعة من الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ٦١/١ وما بعدها مصورة دار الكتب المصرية القاهرة

ومن عجب أننا نرى امرأة من البيت الأموى الحاكم تسعى لعمر لينشد فيها شعرا ويتغزل بها ويشهرها ، فقد روى أن أم محمد بنت مروان بن الحكم حجّت ذات عام ، فلما قضت نسكها أتت عمر وقد أخفت نفسها فى نسوة ، فحدثها مليا فلما انصرفت أتبعها عمر رسولا عرف موضعها،وسأل عنها حتى أثبتها، فعادت اليه بعد ذلك فأخبرها بمعرفته إياها فقالت:

نشدتك الله أن تشهرنى بشعرك وبعثت إليه بألف دينار فقبلها وابتاع بها حللا وطيبا فأهداه اليها فردته فقال لها: والله لئن لم تقبليه لأنبهنه فيكون مشهورا فقبلته فقال فيها:[1]

أيها الراكب الجدّ ابتكارا ... قد قضى من تهامة الأوطارا

مَنْ يكن قلبه صحيحا سليما ... ففؤادى بالخيف أمسى معارا

ليت ذا الحج كان حتما علينا ... كل شهرين حجة واعتمارا

وأحاديث عمر وقصصه مع النساء كثيرة وردت فى أمهات الكتب العربية، وشعره كان صورة من هذه القصص المرحة التى حدثت له بما فيها من وعود ولقاءات وتقبيل وعناق ومطاردة للمرأة أينما كانت بلا رعاية لحرمات ولا لمقدسات.

وذكروا أن عمر تاب عن الغزل فى حدود الأربعين ونذر لئن قال بيتا ليعتقن به رقبة ثم انصرف إلى بيته حزينا،وأدركت

١- ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٩١ .

جاريته ما يجول بنفسه من أسف على تلك التوبة فقالت له:إن لك لأمرا وانك لتريد أن تقول شعرا فاندفع يقول:

تقول وليدتى لما رأتنى طربت وكنت قد اقصرتَ حينا

حتى بلغ تسعة أبيات فدعا بتسعة من عبيده وأعتقهم .

وقيل فى سبب التوبة إن أخاه الحارث بن عبد الله لما رأى ما كان عليه من استهتار وخروج عما يليق بشرفه ومكانته سيّره الى اليمن ورشاه بألف دينار على ترك الشعر ، فلم يستطع الصبر وقال الشعر من اليمن ، فوصل مع الريح الى الحجاز .

وقيل: إنه إنما تاب فى أيام خلافة عمر بن عبد العزيز لما أمر بحمله هو والأحوص ثم أمر بنفى عمر بن أبى ربيعة، فعاهد الخليفة ألا يعود الى مثل هذا الشعر وجدد توبته على يديه ، وعاهد الله على التوبة فخلاه الخليفه آنذاك

ولقد يكون من المعقول أن عمر تاب بوحى ضميره لم يدفعه الى ذلك إغراء أخيه بالمال ولا تخويف الخليفه بالنفى ، ولكنها السن وطول العهد يحملان على الملل والتعقل والوقار ولهذا أصبح يقول :

إنى امرؤ مولعٌ بالحسن أتبعه لا حظّ لى فيه الا لذّة النظر

ومن عجب أن عمر أقسم ذات مرة أنه ما اطلع على جسد حرام ، وجاء فى خبر آخر على لسانه ما يناقض هذا ، حيث

يقول سُمرة الدومانى : إنى لأطوف بالبيت فإذا إنا بشـــيخ فى الطواف ، فقيل لى : " هذا عمر بن أبى ربيعه ، فقبضت علـى يده وناديته يا ابن أبى ربيعه فقال : ما تشاء ؟ قلت : أكل مـا زعمته فى شعرك فعلته ؟ "

فأوما الىّ : إليك عنى ، قلت : أسالك بـــالله قـال : نعـم واستغفر الله .

ولقد اختلف المؤرخون فى موته فبعضهم يقول :إنه مات ســنة ٩٣هجرية فيكون عمره سبعين سنة ، وبعضهم يقول : إنـــه عاش ثمانين سنة ، فيكون قد مات سنة ١٠٣هجرية ، ويكون خبر لقائه لعمر بن عبد العزيز صحيحا لأن عمر بـــن عبـد العزيز لم يتول الا سنة ٩٩ هجرية ، ولكنى أرجـــح القـول الأول ، فقد قيل فى سبب وفاته : إنه غزا فى البحر زمن عبـد الملك بن مروان فاحترقت السفينه ومات ، وهذا ما يؤكـد أن وفاته كانت سنة ٩٣ هجرية

شعره وشاعريته :

لقد شاع في العصر الأموى ثلاثة من الغزل هى : الغـزل العذرى والغزل الإباحى والغزل الصناعى.....

ولقد شاع الغزل العذرى في البوادى ولاسيما في قبيلة (بـنى عذرة) وإليهم ينسب هذا اللون من الغزل العفيف الطـاهر، ويكون مقصورا على امراة بعينها لا يتجاوزها.

وأما الغزل الإباحي فهو الذي يستبيح فيه الشاعر التحدث عن جمال المرأة ومفاتنها ، ويذكر الخلوة بها وما كان بينهما من حديث و عناق وتقبيل ، وعمر بن أبي ربيعة صاحب هذا المذهب الغزلي ، فقد أكثر من معشوقاته ووصفهن جميعا في شعره وذكر ما جرى منه ومنهن ، ولم يكن العرب يعرفون الغزل بهذا اللون قبلة الا ما كان من امرئ القيس فحملوه لواء هذا النوع،وجعلوه زعيم كل من اتبع سبيله من الشعراء.

وقد كان شاعرنا بمولده ومزاجه ومعيشته وبيئته أصلح من يمثل شعراء عصره المشّهرون بالغزل في أكثر من امرأة واحدة ، وقد كثرت الشهادات له في عصره ، فكانت مشيخة من قريش لا تعدل بشعره شعرا قط ، وقد تستحسن منه ما يقبح من غيره ، وكان بعضهم يزعم أن " العرب كانت تقر لقريش بالتقدم في كل شئ إلا في الشعر حتى كان عمر بن أبي ربيعة فاقرّت لها الشعراء بالشعر أيضا ولم تنازعها شيئا"[١]

ورُوى عن نُصيب أنه تكلم عن عمر بن أبي ربيعة فقال :" هو أوصفنا لربّات الحجال" وأقرّ له الفرزدق بأنه أغزل الناس حين كان يسمع شعره .ومن ثَمّ فيمكن أن يُقال عن شاعرية

١- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ١/٧٤ وما بعدها ط دار الكتب المصرية القاهرة

عمر بن أبي ربيعة : إنه كان إمام مدرسة غزلية عرفت في العصر الاموى ، ولم يكن إماما في صناعة القصيد، وهو أول من أدار " الحوار القصصى الغزلى " في شعره في كثير من الاتقان والإبداع الفنى .

وإذا قرأت شعر عمر بن أبي ربيعة أدركت مدى براعته في القول وشاعريته في هذا اللون الذى صار على يديه فنا مستقلا وغرضا يُقصد لذاته سلك إليه مسلكا قصصيا شائقا ، فتراه يتحدث عن صبواته ومغامراته ومواقفه الغرامية المحفوفة بالمخاطر . كل هذا في شعر دقيق الوصف بارع التصوير يستهويك بأسلوبه الحوارىّ وألفاظه الشفافة التي تسيل رقة وعذوبه وجمالا.

<u>جو النص :</u>

هذه القصيدة واحدة من عشرات القصائد التي قالها عمر بن أبي ربيعة وأدخل فيها عنصر الحوار القصصى ، حيث يحكى فيها جرأته واقتحامه بيوت الحرائر ومغافلته للحراس حتى يصل الي شهواته ورغباته ، ويصف ما يجرى في اللقاء ويذكر الحيلة في الخلاص من الأعداء ، ولقد قصر الشاعر جلّ شعره على وصف الغيد الحسان ، وذكر الغافلات ورمى المحصنات

، ولقد قال له سليمان بن عبد الملك ذات مرة : ما يمنعك من مدحنا ؟ فقال عمر : إني لا أمدح الرجال ولكن أمدح النساء ، وهذا يدل على طبع الشاعر وخلقه واستعداده النفسى والعاطفي وانشغاله بمغازلة النساء ووصف محاسنهن وعلاقاته معهن.

وقد كان عمر إمام مدرسة اللاهين بالغزل(كما ذكرنا من قبل)لأنه كان على يسار يعينه على اللهو والفراغ ، وكان له ولع بكلمات النساء واستمتاع بروايتها ، وهذا كله هيأه لقول هذا اللون من الغزل الذى أجاد فيه أيما إجادة ، ومن ثَمّ فالقصيدة صورة مجسمة من حياة صاحبها وما طبع عليه من لهو وقصف وغزل ومجون ، ولقد أنشد الشاعر هذه القصيدة في المسجد الحرام أمام عبد الله بن العباس وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج ، وبعد أن أنشدها أقبل عليه نافع بن الأزرق فقال له : والله يا بن عباس إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد نسالك عن الحلال والحرام ويأتيك مترف من مترفي قريش فينشدك مثل هذا

الشعر[١] ولكن ابن عباس كان يستجيد شعر عمر بن أبي ربيعة ، ويحفظ كثيرا منه .

******

النص

يقول عمر بن أبي ربيعة فى حواره الغزلى القصصى :-

١ أمن آل نُعم أنت غادٍ فمبكر غداه غدا أم رائح ، فمهجر

٢ تهيم إلى نُعم فلا الشمل جامع ولاالحبل موصول ولا القلب مقصر

٣ ولا قرب نُعم إن دنتْ لك نافع ولا نأيها يسلى ولا أنت تصبر

٤ وليلة (ذى دوران) جشّمنى السّرى وقد يجشم الهول المحبّ المغرر

٥ فبتّ رقيبا للرفاق على شفا أحاذر منهم مَنْ يطوف وأنظر

٦ إليهم متى يستكمن النوم منهمُ ولى مجلسٌ لولا اللبانة أوعر

٧ وباتتْ قلوصى بالعراء ورحلها لطارق ليل أو لمن جاء معور

٨ وبتّ أناجى النفس :أين خباؤها ؟ وكيف لما آتى من الأمر مصدر؟

٩ فدلّ عليها القلب ريّا عرفتها لها وهوى النفس الذى كاد يظهر

١٠ فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت مصابيح شبّت في العشاء وأنؤر

١١ وغاب قمير كنت أرجو غيوبه وروّح رعيان ونَوّم سُمّر

١- انظر : الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ٧٢/١ ومابعدها ط دار الكتب المصرية القاهرة ، وانظر : مهذب الأغانى للشيخ / محمد الخضرى ٢١٣/٦ ، ٢١٨ ط مصر بالقاهرة .

١٢ وخُفف عنى الصوت أقبلت مشية (م)الحباب وشخصى خيفة القوم أزور
١٣ فحييتُ إذ فاجأتهـــا فتولّت وكادت بمكنون التحيـــة تجهـــر
١٤ وقالت وعنت بالبنان فضحتنى وأنت امرؤ ميسور أمـــرك أعســـر
١٥ أرتيك إذ هُنّا عليك ألم تخـــف رقيبا وحولى من عدوك حُضّـــر
١٦ فو الله ما أدرى أتعجيل حاجـــة سرتْ بك أم قد نام مَنْ كنت تحذر؟
١٧ فقلت لها بل قادنى الشوق والهوى إليك وما عينٌ من الناس تنظـــر
١٨ فقالت وقد لانت وأفرخ روعها كلاك بحفـــظ ربّك المتكبـــر
١٩ فأنت أبو الخطاب غير منـــازع علىّ أميرٌ كيـــف شئت مُؤَمّـــر
٢٠ فبت قرير العين أعطيت حاجـــتى أقبّل فاها في الخلاء فأكثـــر
٢١ فيالك من ليل تقاصر طولـــه وما كان ليلى قبل ذلك يَقْصُر
٢٢ ويالك من ملهى هناك ومجلـــس لنا لم يكدره علينـــا مكـــدّر
٢٣ يمج ذكى المســـك منها مفلّج [١] نقى الثنايا ذو غروب مؤشـــر
٢٤ يرف إذا يفتر عنه كأنـــه حصى برد أو أقحوان منـــوّر
٢٥ وترنو بعينيها إلىّ كمـــا رنـــا إلى ربرب وسط الخميلة جـــؤذر
٢٦ فلمـــا تقضى الليل الا أقلـــه وكادت توالى نجمة تتغـــور
٢٧ أشارت بأن الحى قد حان منهمُ هبوب ولكن موعدٌ لك (عزور)
٢٨ فما راعنى إلا مناد ترحلـــوا وقد لاح مفتوق من الصبح أشقر
٢٩ فلما رأت مَنْ قد تنبه منهـــمُ وأيقاظهم قالت أشر كيف تأمـــر ؟
٣٠ فقلت أباديهم فإما أفوتـــهم وإما ينال السيف ثأرا فيثـــأر

٣١ فقالت أتحقيقا لما قال كاشحٌ ... علينا وتصديقا لما كان يؤثـــر

٣٢ فإن كان مالابدّ منه فغيـــره ... من الأمر أدنى للخفاء وأستـــر

٣٣ أقصّ على أختيّ بدء حديثنـــا ... ومالى من أن تعلمـــا متأخـــر

٣٤ لعلهما أن تبغيا لك مخرجـــا ... وأن ترحبا صدرا بما كنت أحصـــر

٣٥ فقامت كئيبا ليس في وجهها دم ... من الحزن تذرى عبرة تتحـــدر

٣٦ فقامت إليها حُرتان عليهمـــا ... كساءان من خزّ دمقس وأخضـــر

٣٧ فقالت لأختيها أعينـَـا على فتى ... أتى زائرا والأمر للأمر يقـــدر

٣٨ فأقبلتـــا فارتاعتـــا ثم قالتـــا ... أقلى عليك اللوم فالخطب أيسر

٣٩ فقالت لها الصغرى سأعطيه مطرفي ... ودرعى وهذا البرد إن كان يحذر

٤٠ يقوم فيمشى بيننا متنكـــرا ... فلا سرنا يفشو ولا هو يظهـــر

٤١ فكان مجنى دون مَنْ كنت أتقى ... ثلاث شخوص : كاعبان ومعصر[1]

٤٢ فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى ... أمـــا تتقى الأعداء والليل مقمر؟

٤٣ وقلن أهذا دأبك العمر سادرا ؟ ... أما تستحى ؟ أو ترعوى أو تفكر؟

٤٤ إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا ... لكى يحسبوا أنّ الهوى حيث تنظر

٤٥ فآخر عهدلى بها حين أعرضـــت ... ولاح لها ثـــدٌ نقـــيٌ ومحجـــر

١- ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٦٤ وما بعدها ط الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٨، وانظر : مهذب الأغانى للشيخ محمد الخضرى ٦/٢١٣ وما بعدها ط مصر القاهرة ، وقد رجعنا فى بعض ألفاظ القصيدة إلى روايات أخرى غير رواية الديوان ، فأثبتناها لأنها مناسبة للمعنى .

٤٦ سوى أننى قد قلت يا نُعم قولـة لها والعتـاق الأرحبيـات تُزجر

٤٧ هنيئا لأهل العامرية نشرهمـا (م) اللذيذ وريّاها التي أتذكـر

شرح المفردات :

١- الغادى: السائر غدوة أى بين الفجر وطلوع الشمس . الرائح : السائر في العشى . المهجّر : السائر في الهاجرة وهى اشتداد الحر ظهرا ، وقيل في قول الشاعر (أمن آل نُعم) لعل في العبارة تحريفا والأصل : أمن أجل نعم ، وعلى كل فمن سببية وليست ابتدائية ، ولفظ (أجل) معتبر في المعنى على أية حال ، والعرب يكنون عن الشخص بأهله.

٢- الهيام : الظمأ أو السير على غير هدى شأن المحب الذى يقوده قلبه.

٣- النأى : البعد . يسلى : ينسى.

٤- ذو دوران:اسم موضع بين القديد والجحفة. جشم : كلف وحمل ، السّرى : السير في الليل . المغرِّر: الذى يغرر بنفسه ، والمغرَّر : الذى غرربه .

٥- رقيبا : مراقبا . شفا : على شفا الخطر واهلاك . والشفا : الحرف والحد.

٦- يستمكن : يتمكن . اللبانة : الحاجة ، أوعر : شاق شديد الخشونة .

٧- القلوص : الناقة الشابة الفتية . معور : يقال أمر معـور إذا كان بيّنا واضحا ، كما يقال : أعور لك الصيـد : إذا مكنك من نفسه عند صيده يدل على ذلـك قـول كثير عزّة:

كذاك أذود النفس ياعزّ عنكمُ وقد أعورت أسرار مَنْ لايذودها

٨- أناجى النفس : أحدثها سـرا . الخبـاء : الخيمـة . مصدّر: مرجع ومخرج.

٩- ريّا:رائحة طيبة وهى فاعل (دلّ) والقلب مفعول به.

١٠- أنؤر : جمع نار ويقال أنؤر بالواو أيضا . شـبت : اتقدت . منهم يريد من الرفاق .

١١- قمير : قمر صغير ، روّح رعيان : أى روحوا إبلـهم . رعيان جمع راع كركبان جمع راكب . وسُمّر جمع سامر وهو مَنْ يجتمع بالليل للحديث . نَوّم : نـام والتشديد للمبالغة (زيادة المبنى تـدل على زيادة المعنى)

١٢- الحباب : الحية . أزور : أى يمشى منحرفا . مشـية اسم هيئة مفعول مطلق مبين للنوع .

١٣- تولّهت : الوله الحسرة والحزن والحيرة مـن شـدة الخوف أى تكلفت كل هذا وأظهرته . تجهر : ترفع الصوت .

١٤-ميسور أمرك أعسر : السهل من أمرك صعب .

١٥- أريتك: أصلها أرأيتك ومعناها أخبرني . هُنّا:من هان بمعنى حقر . حضر:جمع حاضر . عدوك : العدو يطلق على الواحد والجمع وفي القرآن الكريم : " فإنهم عدو لي".

١٦- سرت بك : أي مشت الحاجة بك ليلا.

١٧- قادني الشوق : أي جاء بي إليك،وفي قادني الشوق استعاره مكنية في كلمة (الشوق) .

١٨- أفرغ روعها : ذهب خوفها وفزعها وخرج من قلبها كما يخرج الفرخ من البيضة .كلاك : رعاك ، وأصلها كلأك تخفف في لغة قريش ومعناها رعى وحرس.

١٩- غير منازع : غير مزاحم، ما مكثت : ما المصدرية ظرفية أي مدة مكثك. مؤمّر : لك الأمر .

٢٠- العين القريرة : الهادئة الباردة من السرور .

٢١- يالك من ليل تقاصر طوله : تعجب من قصر الليل . والليل هو الليل،ولكن الوهم يطيله على ذوى الهموم ويقصره على السعداء المسرورين .

٢٢- ملهى : اسم مكان من اللهو . لم يكدره : لم يزل صفاءه مكدر. ومكدر اسم فاعل من كدّر.

٢٣- يمج :يقذف ويرمى به . المفلّج : الفم الذي بين أسنانه فروج ويروى (مقبّل) وهو الفم أيضا لأنه موضع التقبيل . الثنايا جمع ثنية وهى إحدى القواطع من الأسنان .وذو غروب : بريق الأسنان المجلوة . الثغر المؤشر : المجلوة أسنانه

٢٤- يرف : يتلألأ . أُفتر عنه (بالبناء للمجهول) ويروى تفتر له أي تبتسم عن بريق الأسنان . البرد : قطع الثلج تسقط من السماء عند اشتداد البرد تشبه بها الأسنان في البياض . المنوّر : الذي ظهر نوْره الأبيض . الأقحوان : نبت طيب الرائحة أبيض الوسط .

٢٥- ترنو:تنظر . الخميلة : الشجر الملتف . الجُؤذر : ولد البقرة الوحشية تشبه به الحسان لجمال عينيه البراقتين . الربرب : قطيع البقر الوحشي .

٢٦- التوالى جمع تالية . تتغور : تنحدر وتغيب والشطر الأخير كناية عن اقتراب الصبح .

٢٧- هبوب : استيقاظ من النوم . عزور : اسم جبل بظاهر مكة عند الجحفة .

٢٨- راعني : أخافني . ترحلوا : قائلا هلموا إلى الترحيل . لاح مفتوق أشقر : كناية عن ظهور الخيوط الاولى من أشعة الشمس .

٢٩- تنبه: أي من نومه – الأيقاظ جمع يقظان والمراد أيقاظهم العديدة .

٣٠- أباديهم : أبدو لهم وأجاهر بالعدوان . أفوتهم : أسبقهم وأنجو .

٣١- الكاشح : العدو المبغض الذي يضمر العداوة. يؤثر : يتناقله الوشاة ويذيعونه ، ويروى هذا البيت (أتصديقا لما قال كاشح ؟) أي أتفعل ذلك تصديقا؟

٣٢- أدنى للخفاء : أقرب للستر وهو الأولى لأنه مأمون العاقبة.

٣٣- بدء حديثنا : أول قصتنا .

٣٤- ترحبا صدرا : يتسع صدرهما لمشكلتي . وأحصر مضارع حصر (من باب فرح) أي ضاق بما عرض له من الأمر فعجز عن التفكير فيه .

٣٥- الكئيب : المهموم (فعيل بمعنى مفعول) وهى وصف للمذكر والمؤنث . ليس في وجهها دم : كناية عن صفرة الوجه من الخجل والوجل . تذرى : تذرف .

٣٦- الحُرّتان : هما أختاها . الخزّ: الحرير . الدمقس : الأبيض من الحرير .

٣٧- الأمر للأمر يقدر : أي يُدبر ويُهيأ.

٣٨- ارتاعتا : فزعتا . الخطب أيسر : المصيبة أسهل وأهون . أقلى عليك اللوم : أي هدئي من روعك وخففي من حزنك.

٣٩- المطرف (بكسر الميم وضمها) : رداء معلم الطرف . الدرع: القميص الذي تلبسه المرأة في بيتها . البُرد : الثوب المخطط.

٤٠- يفشو : يذيع ويشيع وينتشر .

٤١- المجنّ : الترس والمراد هنا مطلق الوقاية فى ثلاث شخوص . الكاعب : الفتاة التى برز ثديها ونهد . المعصر :الفتاة التى أدركت سنّ الأنوثة .

٤٢- أجزنا : قطعنا . تتقى الأعداء : تحذرهم وتقيم بينك وبينهم وقاية .

٤٣- دأبك : عادتك التى تحرص عليها . الدهر : منصوب على الظرفية . سادرا : لاهيا غافلا لا تبالي . ترعوى : تزّجر وتكف عن غيّك .

٤٤- الطرف : النظر .يحسبوا : يظنوا . والمصدر المؤول بعدها سدّ مسد مفعوليها .

٤٥- الخدّ النقي : الصافي الذي يترقرق فيه ماء الشباب . المحجر : ما دار حول العين ليحفظها ويصونها ويراد به العين على سبيل المجاز المرسل (والعلاقة المحلية) .

٤٦- العتاق الأرحبيات : كرام الإبل . تزجر : تساق .

٤٧- هنيئا : مفعول مطلق أي لذيذا و سائغا من الفعل هنؤ بضم العين . العامرية : هى محبوبته نُعم نسبة إلى بنى عامر . نشرها : رائحتها الطيبة المنتشرة وكذلك ريّاها . ويروى (هنيئا لبعل العامرية) وربما كان ذلك أنسب لأن هذه الصفات مما تنفرد بها الزوجات (١).

******

الأفكار التي تدور حولها النص :

اشتمل هذا النص على أفكار رئيسة هى :

١- خواطر الشاعر تجاه محبوبته.

---

(١) انظر : روائع الأدب في عصور العربية الزاهرة د / محمد نبيه حجاب ص ٥١ وما بعدها ط دار المعارف بالقاهرة ، وأنظر محاضرات في النصوص الأدبية د/ شريف محروس ص ٢١٧ وما بعدها.

٢- ليلة ذي دوران وما لاقاه من جهد في سبيل الوصول إلى محبوبته .

٣- وقع المفاجأة والحوار الذي دار بين العاشقين

٤- ما حدث في هذه الليلة بين الشاعر وصاحبته .

٥- نجاة الشاعر في الصباح وآخر عهده بمحبوبته.

وقد استطاع الشاعر أن يبرز هذه الأفكار بما أوتى من قوة الصياغة والسبك وجميل العبارات والألفاظ ، واستطاع أن يجعل السامع مبهورا بتلاحق هذه الأحداث وتتابع هذه الأفكار ، وأخذها بأعناق بعضها البعض في إبداع وإحكام.

والمعاني التي ساقها الشاعر مناسبة لموضوع القصيدة ، تحمل طابع المغامرة والجرأة والمفاجأة والحيلة لزيارة المحبوبة في جوف الليل ومحاولة الهروب خشية الوقوع بين براثن الأعداء والنيل منه ، وقد أبدع الشاعر في هذا الأسلوب الحوارى الذي زاد شعره طرافة وإمتاعا ، كما رفع من قيمته الأدبية ومنزلته الفنية ، وهو وإن خلا من العقدة الفنية (الحبكة القصصية) غنيّ بخيالة الخصب الذي يشوق السامع ويمتع القارئ .

ويجب أن نذكر في هذا المقام أن عمر بن أبي ربيعة قد تأثر فى معانية وأسلوبه بامرئ القيس ، وهو وإن أخذ بعض معانيه إلا أنه زاد فيها كثيرا وحلاّها بصبغ المدينة ومظاهر الحضارة ، فلقد كأن شعر بن أبي ربيعة صورة فنية متميزة للحياة العربية في بيئة الحجاز في هذا العصر بالذات.

****

المعنى العام:

في المقدمة (١-٣) نرى الشاعر يجرد من نفسه سائلا يسأله عن موعد رحيله إلى محبوبته (نُعم) أفي الصباح الباكر أم ظهرا والناس فى الهجير الملتهب ؟ ثم يوجه إلى نفسه هذا الحديث فيقول : أنت تهيم بها ، وأنت متيم بحبها ، وفي سبيلها تخرج هائما على وجهك علك تظفر بها ، ولكن لن تبلغ ما تريد من الوصل ، ولن يسلو قلبك العاشق الهيمان عن حبها وتحمل الصبابة من أجلها ، كما أنه لا فائدة من قربها منك حيث لا يروى ظمأك ، ولا جدوى من بعدها عنك حيث لا يسلو قلبك وينسى هواها ، وستظل على الحالين قلقا معذبا مهموما .

وفي الأبيات (٤-١٣) يصف الشاعر ليلة (ذى دوران) وهو موضع بين القديد والجحفة ، حيث قضى مع محبوبته ليلة من ليالي المتعة والحب .

فالشاعر في هذه الأبيات يصف ما لاقاه في هذه الليلة من جهد ومشقة للوصول الي معشوقته ، فقد انتحي عن رفاقه ناحيه يلاحقهم بنظره ويرتقب غفوتهم على حذر ليسعى إليها آمنا مطمئنا ، ويرينا الشاعر دقائق هذا المشهد في براعة وإبداع ، فهو يذكر أنه جلس في موضع شاق غير ممهد ليتحسس طريقا إليها بعد أن ترك ناقته الفتية بعيدا،وبعد فترة المراقبة بدأ في التسلل إليها وقد هداه قلبه إليها ، وقد هدأت الأصوات وأطفئت المصابيح والنيران وغاب القمر ، وقد عاد الرعيان ونام السمّار ، ولهذا فهو ينساب إنسيابا إلى مخدعها ، وفجأة تراه أمامها يحييها ، وقد كانت مؤرقه من الشوق والعشق ، وكادت لهول المفاجأة أن ترد على تحيته بصوت مرتفع ، ولكنها تذكرت موقفها الصعب ، فقالت ما تقوله الفتاة في هذا الموقف ، وهو " فضحتنى"

وفي الأبيات (١٤- ١٩) يذكر ما دار بينهما من حوار بعد هذه المفاجأة وزيارته غير متوقعة لها ، فقد قالت له

بعد أن عضت على بنانها : " فضحتنى" ألا تخاف على نفسك مادمت لا تخاف على محبوبتك ، فحولك جميع الأعداء يريدون الفتك بك والقضاء عليك ، ولكنه يقول لها : لا عليك فقد قادنى الشوق والحب إليك ، فتقول له وقد هدأ روعها : حفظك الله من كل سوء ، ثم تدلله بقولها (أبا الخطاب) أنت أمير علىّ ، فقولك مطاع مادمت مقيما عندى

وفي الأبيات (٢٠- ٤٢) يصف الشاعر ما حدث بينه وبين محبوبته في هذا اللقاء ، وما تعرض له ساعة رحيلة عند تباشير الصباح ، ونرى الشاعر في هذه الأبيات يقول : إنه قد قضى ليلته هنئا سعيدا يقبّل محبوبته ويكثر من تقبيلها ، ومن ثَمّ فقد أنقضى الليل دون أن يحسّ به ، وهكذا الأوقات السعيدة تمرّ مرّ السحاب،ويمضى الشاعر في وصف ماحدث في حرية تامة دون أن يكدر صفوه مكدر حيث استمتع بمقبلها وهو يفوح المسك منه ، وهو نقى الثنايا محلو الأسنان ولها بريق ساحر أخّاذ يسلب اللب والعقل والفؤاد ، كما ترنو إليه بعينين ساحرتين كعيني الغزال ، ولما تقضى الليل أرادت أن تصرفه ، حينما بدت تباشير الصباح حتى لا ينكشف أمرهما ، ثم ضربت له موعدا جديدا للقاء في (عزور)

بعيدا عن الرقباء من أهلها ، ولكنه فوجئ بالقوم ينادى فيهم المنادى : هلموا إلى الرحيل ، وقد استيقظ نفر منهم ، ولهذا فقد استعد الشاعر للمبادأة والمبارزة ولكنها أشارت عليه بشيء لا يكشف أمرهما ويستر حالهما ، وعرضت عليه أن تستنجد بأختيها لتعيناها على ماهما فيه ، ويحتلن سويا لأنقاذ هذا الموقف الصعب ، على أنها تذكر لها بداية قصتها ، معه ولن تبوح لهما بنهاية القصة الآثمة.

ويصف الشاعر ما كانت عليه من خزى وخجل ، وهى تذرف الدموع السواجم خوفا وهلعا ، وهى تستنجد بأختيها ولكنهما يقولان لها : أقلّى عليك اللوم وهدّئى من روعك وخففي من حزنك ، فالكارثة أهون من كل هذا ... وتعرض الأخت الصغرى بأن تعطيه ثيابها ليلبسها حتى يُظن أنه واحدة منهن ، وفعلا يتخفي الشاعر بينهن، ويسير بين هؤلاء الفتيات اللاتى حجبن عنه أعين الرقباء .

وفي الأبيات الأخيرة ((٤٢-٤٧) يذكر لنا الشاعر نجاته من الأعداء ونصيحه النسوة له وآخر عهده بمحبوبته .....

فقد قلن له قولا فيه تقريع ولوم ونصح ، إذ كيف لا يتقى الأعداء ؟ وكيف يكون ماضيا في غيّه سادرا في لهوه ؟

وكيف لا يستحي ويزجر ويكف عن لهوه ومجونه ؟ ثم ترسم له محبوبته الطريقة المثلى للوصول إليها سرا ، حيث يعمل على خداع قومها ومراوغتهم ويظهر لهم في هواه ومقصده خلاف ما يبطن .

ويذكر الشاعر آخر عهده بمحبوبته ، فقد لاح له خدّها النقى الذي يترقرق فيه ماء الشباب ، وعيونها الساحرة الفتّاكة وعبيرها الفوّاح الذي لا يُنسى ، ولهذا فهو يحسد أهلها على هذا الجمال ، وهذه الفتنة الساحرة والأنوثة الطاغية الرائعة .

****

دراسة وتحليل ونقد :

١ ـ موضوع هذه القصيدة : الغزل القصصى إلاباحي الذي عُرف به الشاعر ابن أبي ربيعة ، وكان علما من أعلامه ، وقد سبق أن ذكرنا أن عمر هو صاحب هذا المذهب ، فقد أكثر من معشوقاته ووصفهن جميعا في شعره ، وذكر ما جرى منه ومنهن ، ولم يكن العرب يعرفون هذا اللون من الغزل إلا ما جاء عند امرئ القيس ، فحمل لواء هذا النوع،وقد ابتدع عمر في شعره الأسلوب القصصى الطريف اللطيف ، الذي يختلب اللبّ إختلابا وينتزع

الإعجاب إنتزاعا ، والأسلوب القصصى في شعره يحث القارئ على متابعة ما يقول بلهفة وشوق ، فلشعر عمر جاذبية وقدرة على الأسر والاستهواء للقلوب والعقول جميعا .

ويمكن أن يُقال : إن عمر بن أبي ربيعة قد جعل الغزل فنا مستقلا قائما بذاته ، بعد أن كان مجرد ديباجة تقليدية تفتتح بها القصائد على اختلاف أغراضها في أغلب الأحوال .

ويشير الدكتور / عبده بدوى إلى أن عمر بن أبي ربيعة سار على طريق امرئ القيس ، وأن امرأ القيس كأن يكثف موضوعه الشعرى ويومئ ويشير ، بينما عمر بن أبي ربيعة كأن يقدم لموضوعه ويستخدم (أسلوب التراجع) ويفصل تفصيلا مثيرا باهرا ، وأن بطلات امرئ القيس كن متزوجات ، أما بطلات عمر فكن في الغالب فتيات[1] ، وقد دوام على وصفهن بالحسن الفتّان والجمال الخلّاب والصبا الريان ، وسحر العيون وجمال القدود وبروز النهود .

---

[1] انظر : مجلة الشعر العدد العاشر إبريل سنة ١٩٧٨ ص ٧٨ بحث د . عبده بدوى بعنوان (دراسة في نص لعمر بن أبي ربيعة) .

٣ ـ عرفنا أن الشاعر تغزل في (نُعم) في تلك القصيدة فما حقيقة (نُعم) ؟ هل هي على الحقيقة أو المجاز؟ هل هي رمز لامرأة أو لجنس النساء ؟ هل هي قناع للعصر أو الشاعر ؟ إننا نجد في شعره شخصيات حقيقية يعرفهن التاريخ كعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الأمام الحسين والثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أمية ،وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وهند بنت الحارث المرّية ، ولكن من نُعم هذه ؟ هي ترى أن تكون رمزا لزينب الجمحية التي قدمت من المدينة لتحج ، فأعجب بها عمر وأعجبت به وعاشا أياما سعيدة ثم تزوجا ، ويرجح الأستاذ الدكتور / عبده بدوى أن يكون قد رمز لها بنُعم وبذات الخال ، ففي القصائد التي دارت حولها نحسّ شيئا قليلا من الحرقة واللوعة والوجد ، كأن كافيا لأن يتزوجها بعد قصة امتناع منها عليه ، ثم أن رأيها فيه كان يتحرك في دائرة الحب والإعجاب والوله ، أما الأخريات فكن كاشفات له يعرفن نواياه عندما يتغزل فيهن ، فها هي مثلا كلثم بنت سعد المخزومية تقول : أنه خداع ملفق ، وليس لما شكاه أصل ، وهذه سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف بعد أن أنشدها قصيدة يتغزل ويشبّب بها ، ولمّح إلى

أشياء لم تحدث تقول: أخزاك الله يا فاسق ، ما علـــم الله أنى قلت مما قلت حرفا واحدا ، ولكنك أنسان بهوت [١].

٣- اتخذ الشاعر عمر بن أبي ربيعة في معظم شعره الغزلى – ومنه هذه القصيدة التي معنا – طريقة الحوار بينه وبـــين النســـاء الحجازيات في عصره ، أو قل هذا القصص غير المتكـــامل ، فليس هناك عقدة وليس هناك قصة بالمعنى المـــألوف ، وإنمـــا هناك حوار وضرب من القصص غير التام ، على أن عمر بـــن أبي ربيعة حين نزع هذا المـــزع في غزلـــه ، أصبـــح يشـــبه القصاصين من بعض الوجوه ، فقلّ الغموض في غزله ، لأنـــه كشف لنا عن كثير من الحقائق ، وحاول أن يستخدم تجربتـــه ومعرفته بمجتمعه وبالمرأة في عصره ، وكأنما كان يحـــاول أن يزيل الحجاب عنها وعن نفسها ، وقد اضطره هذا الاتجـــاه الجديد في غزله : اتجاه القصص ، إلى أن يدخل بنا في تخيـلات القصاصين ، فهم يخرجوننا من عالمنا إلى عالم ملئ بتخيلاتهـــم

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٨٢ وما بعدها .(بهوت : صيغة مبالغة من بُهت الرجل : أى دهش،أخوذ! بالحجة ، وفى القرآن الكريم " فبُهت الذى كفر " .) .

وفنونهم[١] ، ويؤكد د/ شوقى ضيف على هـذا الجـانب في شعره في كتاب آخر من كتبه ، مبينا هذا البناء القصصى غير المتكامل الذي ينفذ من خلاله ، فيصـور عواطـف المـرأة المتحضرة في العصر الأموى فيقول :" وغزل عمر كله بُـنى هذا البناء القصصى ، وهو بناء غير كامل من حيث القصـة ، فليس فيه عقده ، وليس فيه تركيب ولا تحليل . ومع ذلـك ينبغى أن نلاحظ أن الخيال لعب دورا مهما في هذا القصص ، كما يلعب عادة في أقاصيص مَنْ يقصون إذ يخرجوننـا مـن عالمنا إلى عالم جديد لهم ، يملئونه بخيالاتهم ، وكذلك كان عمر في كثير من جوانب ديوانه يملؤه بكثير من أخيلتـه ، فـهو قصّاص في غزله ، يتخيل ، ثم يقصّ ما يتخيل ، سواء حـين يصف مغامراته – كما صنع في القطعة السابقة[٢] –أوحـين يصف أحاديث النساء وتعلقهن به . واستطاع أن ينفذ مـن خلال ذلك إلى تصوير عواطف المراة التي تحضرت في عصره حين تحب ، وما يكون بينها وبين أخواتها أو جواريـها مـن

---

(١) انظر : الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بنى أُمية أ.د . شوقى ضيف ص ٢٦٤ وما بعدها .

(٢) يشير إلى بعض أبيات القصيدة التي تقوم بإلقاء الضوء عليها .

أحاديث عن حبها وعن صاحبها ، وعن كلفه بغيرها وكلفها به ، وبذلك أعطانا صورة حية للمرأة المتحضرة ، وما قد يمرّ بها من هواجس ووساوس ، وما يداعب خيالها من أفكار وأوهام"[1]

ومع إيماننا بالرأى الذي ذهب إليه الدكتور / شوقى ضيف إلا أن الدكتور / شريف محروس له رأى آخر ، فهو يرى أن ما جاء بهذا النص يعدّ قصة قد اشتملت على عناصر القصة الفنية من حدث نام متطور ، وشخصيات متمثلة في الشاعر وناقته والفتاتين مع محبوبته ، ثم الرعاة والسمار وبقية القوم ، ويقول في هذا الصدد : " هذه القصة تخللها الحوار كثيرا وهو حوار داخل في نسج الأحداث ، مكون لها ونام بها ، ويتصاعد معها إلى العقدة التي تمثلت في استيقاظ القوم ودبيب الحركة والنشاط في الحيّ ، عند ذلك أحاط به الخطر من كل مكان ، وتحيرت (نُعم) معه لا تدرى ماذا تفعل؟ وازدادت العقدة حدّة وتعقيدا ، ولما أُغلق الفكر ، ولم تجد لها مخرجا لجأت إلى أختيها تبحث عندهما عن حل ، فأشارتا

١- التطور والتجديد في الشعر الأموى للأستاذ الدكتور شوقى ضيف ص ٢٣٦ ط دار المعارف بالقاهرة

عليها أن يخرج بينهم في زى فتاة ، وبذلك أنحلت العقدة بوصولها إلى مرحلة التنوير التي قال عنها النقاد وانتهت القصة(١)" ولكل وجهة هو موليها

٤- أما بالنسبة للألفاظ والتراكيب التي في هذه القصيدة، فالشاعر عندما يستخدم الألفاظ لا يستخدمها بمدلولها اللغوى فحسب ، وإنما تحمل الكلمة شحنة انفعالية قادرة على نقل إحساسه ، ويجب وضعها في جملة تأخذ مما يجاورها وتعطيه ، فكل كلمة محملة بالوجدان إلى جانب المدلول الوضعى لها ، ويستعين بها الشاعر في نقل إحساسه إلى المتلقى ، ونحن إذ نتابع الشاعر هنا في مفرداته لا نطلب منها عطاء منفردا ، وإنما ما تبوح به داخل الجملة ، وما ترتبط به معها من أحاسيس وانفعالات ، لأن الشعر تعبير وجدانى ، والشاعر حين يصنع جملته ويختار لها المفردات لابد أن تكون معبرة عن المعنى المراد، ويجب أن تكون ناقلة للوجدان حسب تفجيرها لذكريات الشاعر .(٢)

---

(١) محاضرات في النصوص الأدبية للدكتور شريف محروس ص ٢٣٦

(٢) انظر:المرجع السابق ص ٢٥٣ .

وعندما نقرأ هذه القصيدة من شعر عمر بن أبي ربيعة نحسّ بمقدرة الشاعر في الصياغة والتعبير وانتقاء الألفـــاظ المعـــبرة والموحية ، والشاعر يختار لمعانيه ألفاظا دقيقة فيـــها رصانـــة وفحولة ، فلا تجد له كلمة هزيلة أو ضعيفة أو ركيكـــة . وفي جانب الغزل نجد ألفاظا رقيقة معبرة مثل : تميـــم- قـــرب - وصال- اللبانة- أناجي - الشوق - الهـــوى - نشـــرها - رياها- خدّ نقي - محجر - كاعب - معصر ، وهي وغيرهـا من ألفاظ الغزل الرقيقة التي تناسب هذه العاطفـــة وتـــؤدى الغرض المراد.

وفي القصيدة ألفاظ فيها فحولـــة ورصانـــة مثـــل - جشمني- اللبانة- قلوص- شـــبت - أنـــؤر- الحبـــاب - تولّت- أزور - أفرخ - كلاك- مفلج - غروب- تتغـــور- مفتوق- مجنّ- كاشح - سادر - ترعوى.

وهذه الألفاظ وغيرها تدل على تمكن الشاعر من ناصية اللغـة وقوة شاعريته وفحولته .

وإذا نظرنا فى عبارات الشاعر نجد العبارات الدالّة التي وظفها الشاعر لتصوير حبه وهيامه ، وذلك مثل : الشـــمل جامع - الحبل موصول - القلب مقصر - أناجي النفـــس -

دلّ عليها القلب ، وهى لا شك عبارات معبرة عن عاطفته ووجدانه وصدق مشاعره وأحاسيسه .

وهناك عبارات للشاعر استطاع من خلالها أن يصور الخوف والهلع الذي صاحب هذه الليلة الليلاء مثل قوله : جشمنى السرى – بتّ رقيبا للرفاق– أطفئت مصابيح – روّح رعيان – نوّم سمر – أقبلت مشية الحباب – عضت بالبنان – توهّت – أفرخ روعها – فضحتني، وهى بلا شك عبارات تصور حالة الترقب والفزع والخوف والمعاناة التي صحبت الشاعر في هذه الليلة وما تعرض له من المخاطر والأهوال والمصاعب .

وهناك عبارات أخرى تعبر عن هناء الشاعر وسعادته بلقاء محبوبته ، والمتعة الحسية التي وجدها في هذا اللقاء وذلك مثل : بتّ قرير العين – أقبّل فاها في الخلاء– يالك من ملهى– يمجّ ذكى المسك مقبّلها– ترنو بعينيها – نشرها اللذيذ ، وهى بلا شك عبارات تدل على تمتعه بجمالها وسحرها ولقائه معها.

٥– ومن حيث الخيال والصورة الشعرية التي في النص ، فيكاد يكون هذا النص كله لوحة فنية ذات جزيئات

متضامنه ، أعطتنا في النهاية إحساسا مترددا بين اليأس والرجاء والخوف ، فعمر يشدّ الرحال يملؤه الرعب والتوجس للقاء محبوبته ، ولولا الحب الذي يعلم المحبين الجسارة والاستهانة بالأهوال واجتياز المخاطر والاستعداد لمجابهة الأخطار،حتى يتم اللقاء ويقضى حاجته وينال مأربه[1] ، والشاعر في هذا النص يصور لنا ما كان بينه وبين محبوبته ، وكيف تخطى الصعاب وغافل الرقباء ، حتى وصل إليها وجالسها ليلة كاملة ثم أنصرف هانئ البال سعيدا.

وقد استطاع الشاعر بما أوتى من قوة شاعريته وصفاء قريحته ، وما طُبع عليه من رقة في العاطفة أن يعتمد على الخيال المطبوع والصور الشعرية التي تنساب بلا تكلف ولا تعمل ولا استكراه ، وإذا رحنا نفتش عن بعض هذه الصور الجزئية في هذا النص نذكر أن من التشبيهات الرائعة في القصيدة قول الشاعر :(أقبلتُ مشية الحباب) فقد شبه مشيته في حذر بدبيب الثعبان ، وهو تشبيه أبرز الصورة ووضحها في الأذهان ، وكذلك قوله (كأنه حصى برد أو أقحوان منور) فقد شبه الشاعر ثغر محبوبته برائحته الطيبة وأسنانه المفلجة

---

[1] انظر : محاضرات في النصوص الأدبية ص ٢٤٠

اللامعة بالبرد شكلا ولوناً وبالاقحوان بياضا ورائحة ، فهو تشبيه تعدد فيه المشبه به ، وفيه دقة وإبداع فني.

وفي قوله (كما رنا جؤذر) تشبيه جميل ، فقد شبه عينيها بعينى الظبى الجميلتين الساحرتين ، وفي قوله (وسط الخميلة) إطناب رائع لتصوير الجؤذر وسط خميلة رائعة جميلة ، مما يزيده جمالا وبهاء .

وفي قول الشاعر (كان مجنى ثلاث شخوص) تشبيه جميل حيث شبه الفتيات الثلاث وهن يحطن به كالمجنّ الذي يقى المحارب ويصونه من سهام الأعداء وأسلحتهم . ومن الاستعارات التي أبدع في نسجها الشاعر قوله (يمجّ ذكى المسك منها مقبّل) فقد استعار المسك لرائحة الفم الطيبة الذكية .

وفي قوله (قادنى الشوق) استعارة مكنية ، وفي قوله (جشمنى السرى) استعارة مكنية أيضا .

ومن الكنايات الواضحة في النص قوله (ليس في وجهها دم) فهو كناية عن صفرة الوجه وشدة الخجل والخوف ، وفي قوله (لاح مفتوق من الصبح أشقر) كناية عن ظهور الخيوط الأولى من أشعة الشمس ، وفي قوله (كادت

توالى نجمة تتغور) كناية عن قرب طلوع الشمس ، وفي قوله (حان من الحيّ هبوب) كنايةعن قرب طلوع النهار ، وقوله (غاب قمير وروح رعيان ونوّم سُمّر) كناية عن الهدوء والسكينة التي شملت المكان.

ويريد الشاعر من قوله (محجر) عين محبوبته على سبيل المجاز المرسل وعلاقته فيها المحلية .

والذي نلاحظه على هذه الصورة التي ساقها الشاعر أنه يميل إلى الإلمام بتفاصيل الصورة واستيفاء أجزائها وذلك مثل تصوير سعيه للقاء محبوبته وتحايله على الوصول إلى خبائها ، ومثل تصوير انقضاء الليل وقرب طلوع النهار وما يصاحب هذا من إشارات وعلامات ، ومثل تصوير فزع الفتاة وخوفها خشية أن يفتضح أمرها وينكشف سرها.

٦- هذه القصيدة من بحر الطويل وهو بحر يصلح لكثير من الأغراض الشعرية ، ولا سيما ما يحتاج للنفس الطويل مثل هذا الشعر القصصي الذي ينبنى على الحوار والسرد واستيعاب الأحداث وتتابعها ، (وهو بحر وقف عنده الشعر القديم طويلا إلى حد القول بأن ثلث الشعر جاء

فيه)[1] وقد استطاع الشاعر أن يحدث انسجاما بين هـــذا الوزن الموسيقيّ وبين موضوع القصيدة ، وقد زاد من جمـال الجرس الموسيقيّ في القصيدة أن بُنيت قافيتها على حـــرف الراء وهو من الحروف العذبة الوقع على أذن السامع .

ومن الموسيقا الخارجية أيضا وجود بعض المحسنات اللفظيـــة كالطباق في قوله (أطفئت وشبّت) وفي قوله (ميسور وأعسـر) وفي قوله (الخفض و الجهر) وفي قوله (تقاصر و طولـه) وفي قوله (بدء ومتأخر) وما إلى ذلك .

٧- للتجربة الشعرية دورها المهم في الصدق الفنى وإبـــراز العمل الأدبي في صورة لائقة ، تتمثل في قوة الصياغة وجـودة السبك والرصف ودقة التصويـــر والتعبـــير ، بالإضافـــة إلى اللمسات الخيالية والجمالية في القصيدة.

وشاعرنا في هذه القصيدة خاض تجربة شعرية واقعية ، فقـــد عيّن الزمان والمكان الذي حدث فيه ما حدث بينـــه وبـين صاحبته (نُعم) وذلك في قوله (وليلة ذى دوران جشّـــمنى السّرى).

---

[1] مجلة الشعر العدد العاشر بحث الدكتور عبده بدوى بعنوان دراسة في نص عمر بن أبي ربيعة صـــــ٧٣ .

وعلى الرغم من اللمسات الخيالية التي لمسناها في هـذا النص ، إلا أن استيعاب الحدث وتفاصيل اللقـــاء والحـوار القصصي الذي أجاد فيه الشاعر ، كل هذا يؤكـــد واقعيـة الحدث وصدق التجربة الشعرية فيه .

وقد تهيأت نفس الشاعر وأسلوب حياته ونشأته المترفة لقول هذا اللون من الغزل ، فالحب عنده مغامرة وملاحقـــة للمرأة أينما كانت ، وفى ذلك جرأة في الاتصال بها والوصول إليها مهما كلفه ذلك من جهد وعناء .

ولا يعنى هذا كله أن الشاعر كان صادق العاطفة نحـو المرأة يكتوى بنار حبها وفراقها ويسهر الليل مـــن أجلـها ، ويصيبه الهم والحزن للبعد عنها ، ولكنه كان ينظـــر للمـــرأة نظرة اللاهى العابث الذي يحب أن يكون معشوقا من النســاء يلاحقنه أينما سار وحيثما حل ، أو أن يكون مطاردا للنســاء يلاحقهن ليلهو بهن ، ويعبث معهن.

ولهذا فحب الشاعر للمغامرة ومطاردة النساء يجعلنـــا نؤمن بصدق تجربته الشعرية في هذه القصيدة ، فهى صـــورة صادقة لحياته وبيئته وطبيعته ونفسيته .

ويؤكد الدكتور / شريف محـــروس هـــذه التجربـــة الشعرية عند عمر بن أبي ربيعة فيقول : " إن تجربة الشاعر في هذا النص هى (الإصرار و اللهفة على بلوغ الأرب) ونحـــن نرى فيها صدق صاحبها ، وصدق التوجيهات النفسية الـــتي دفعته إلى هذا الإصرار ، وذلك نابع من تكوينـــه النفســـي ويتمثل في:

(١) طبيعته الغزلة ، وحياتـــه القائمـــة علـــى الحـــب والتشبيب بالنساء .

(٢) شعوره بالزهو عندما تقع في حبائله امرأة .

(٣) شعره الذي لم يقله في غير الغزل.

والتجربة التي عانى منها في هذا النص أو في غـــيره مـــن شعره ليس بالضرورة أن يكون الشاعر قد عاشها ومارســـها بنفسه ، وإنما يكفي أن يكون قد تأثر بها وعانى منها معانـــاة حقيقية وصادقة ، والشاعر في هذا النص وما بثه من مشـــاعر ووجدان وما قصّه علينا من أحداث لا يؤكد أنه واقع عاشه ، ولا ينفيه أيضا ، فمن المحتمل أن تكون قد حدثت هذه القصـة بحذافيرها أو قد دخلها بعض الزيادة أو النقص ، أو تكـــون برمتها من نسج الخيال ، كل ذلك لا يعنينا في شـــئ ؛ قـــدر

احتياجنا إلى صدق التجربة وصدق التعبير عنها ...إذ تبـــدو تجربته في كل خطواته الفنية التي عبّر بها عن (الإصرار واللهفة على بلوغ الأرب) وتلك تجربته"[١].

ويجب أن ننبه فى هذا المقام إلى أنه لا يراد بصدق التجربـــة مطابقتها للحقيقية والواقع ، فإنما هذه من شـــأن التجـــارب العلمية ، أما التجارب الشعرية فصدقها في مطابقتها لوجـــدان الشاعر وتعبيرها عن مشاعره وانطباعاته وأحاسيسه[٢].

٨- اشتمل هذا النص على الكثير من الأساليب الإنشائية الرائعـــة التي تدل على شاعرية عمر بن أبي ربيعة وقوة بيانه وفصاحتـــه ، ففي قوله (أين خباؤها) ؟ أسلوب استفهام الغـــرض منـــه إظهار الحيرة واللهفة على معرفة المكان ليسعد بلقائـــها ، وفي قوله (وكيف لما آتى من الأمر مصدر) ؟ أسلوب اســـتفهام الغرض منه الحيرة ، وفي قوله (أريتك؟) أصلـــها أرأتيـــك ؟ فخُففت ، وفي هذا القول استفهام الغرض منه إظهار الغضـــب ، وفي قوله (ألم تخف رقيبا) ؟ أسلوب استفهام الغرض منـــه

---

(١) محاضرات في النصوص الأدبية صـــ ٢٣١ وما بعدها.

(٢) انظر: قضايا النقد الأدبي الحديث لأستاذنا الدكتور / محمد السعدى فرهود ص ٩٥ دار الطباعة المحمدية القاهرة ١٩٧٩ م

التقرير والتخويف ، وفي قوله (ما أدرى ؟) استفهام الغرض منه إظهار الغيظ ، وفى قوله (فو الله) أسلوب قسم (وهو إنشاء غير طلبى) الغرض منه تأكيد الجملة فقط ، وفي قوله (أتعجل حاجة)؟ استفهام الغرض منه التأنيب ، وفي قوله (أم قد نام مَنْ كنت تحذر) أسلوب استفهام الغرض منه اتهامه بالجبن ،وفي قوله (فيا لك من ليل) أسلوب تعجب(وهو إنشاء غير طلبى) الغرض منه إظهار الفرحة بالليل ، وفى قوله (ويالك من ملهى هناك ومجلس) أسلوب تعجب (وهو إنشاء غير طلبى) الغرض منه إظهار اللذة والمتعة ، وفي قوله (ترحلوا) أسلوب أمر المراد منه طلب الاستيقاظ ، والغرض منه الخوف من النتيجة ، وفي قوله (كيف تأمر ؟) أسلوب استفهام الغرض منه طلب النجاة في المشورة ، وفي قوله (أتحقيقا لما قال كاشح؟) أسلوب استفهام الغرض منه التقريع والتوبيخ ، وفي قوله (أعينًا على فتى)أسلوب أمر الغرض طلب المعاونة وفي قوله (أقلى عليك اللوم) أسلوب أمر الغرض منه تهدئة المخاوف ، وفي قوله (أما تتقى) أسلوب إنشائى جاء بصيغة الخبر لأن المعنى : اتق ، والغرض منه التأنيب والتحذير ، وفي قوله (أهذا دأبك الدهر ؟) أسلوب

استفهام الغرض منه اتهامه بالتهور والطيش ، وفى قوله (أمـــا تستحى أو ترعوى أو تفكر) أسلوب إنشائى جـــاء بصيغـــة الخبر لأن معناها : استح ، ارعو ، تفكر ، والغرض منها اتهامه بالرعونة وعدم الحياء ، وفي قوله (فامنح طرف عينيك غيرنا) أسلوب أمر الغرض منه التوجيه والإرشاد[1] .

وهكذا رأينا هذا التنوع العجيب في الأساليب الإنشائية مـــن استفهام إلى تعجب إلى أمر إلى الأساليب الإنشائية التي جاءت بصيغة الخبر ، وما ذلك الا لبراعة الشاعر وأخـــذه بناصيـــة البيان والفصاحة .

٩- كان عمر بن أبي ربيعة مجيدا في هذه القصيدة الـــتي وضح فيها التطور والتجديد ، وتعدّ من عيون الشعر العـــربى ، وكأن هذا التجديد من علامات الرقى والمدنية والتحضر ، فقد عُرف عن الشاعر أنه من أوائل الذين طوروا وجـــددوا في أسلوب الشعر العربى، وبخاصة فن الغزل الـــذي قصـــر ديوانه كله عليه ، وينمّ عن عبقرية فذة لشاعر تخصـــص في هذا الفن ، حتى عُرف به وأجاده إجادة تامة ، ومما يدل على

---

[1] انظر : محاضرات في النصوص الأدبية للدكتور شريف محروس ص ٢٥٠ وما بعدها .

تقدمه في هذا المضمار ما جـــاء في (الأغـــانى لأبى الفـــرج الأصفهانى) من أن يعقوب بن إسحق كان يقول : " كـــانت العرب تقر لقريش بالتقدم في كل شى عليها إلا في الشـــعر، فإنها كانت لا تقر لها به ، حتى جاء عمر بن أبي ربيعة فأقرّت لها الشعراء بالشعر أيضا ولم تنازعها شيئا[١] .

ويشير الدكتور / محمد فتوح أحمد إلى هذا التجديـــد والتطور في غزل عمر بن أبي ربيعة ، وإلى خصائص هذا الفـن عنده فيقول :" وغزل عمر غزل حضرى بكل ما تحمله هـــذه الكلمة من معنى ، هو حضرى في نموذج المرأة التي يصورهـا ، تلك المرأة الجميلة الذكية المتمتعة بقسط من الحرية يتيح لهـــا لقاء الشعراء والاستماع إليهم ، بل والســـعى نحوهـــم إذا لم يسعوا هم إليها ، ثم هو حضرى في استجابته لمقتضيات الغناء والتلحين لدرجة أنك لو تصفحت ديوانه لوجـــدت معظـــم قصائده يدور في إطار الأوزان الخفيفة والقصار والمجـــزوءة ، حتى يلائم طبيعة الغنـــاء في امتـــداد النَّفَـــس واختصـــاره ، وأنبساط الحركات والأصوات وانقباضها، ثم هو – أخـــيرا – حضري بتفننه في رصد نفسية الأنثـــى المتحضـــرة عاشـــقة

١- الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ١/ ٧٤ وما بعدها

ومعشوقة ، وتوفره على تصوير كثير من مشاعرها ورغباتها وعلاقاتها العاطفية بين الصدّ والإقبال ، والوصال و التدلل والرغبة والخشية ، والتقاطه في ثنايا هذا كله بعض ما يحيط بصلات المحبين من تفصيلات واقعية صغيرة ، كسعى الرسل بينهما في إصلاح ما أفسده الوشاة ، وتحبير الرسائل نشدانا لودّ أو اعتذار عن ذنب ، وضرب المواعيد في غفلة من أعين الرقباء ، والتماس الحيل صرفا لعذول أو رغبة في لقاء ، كل هذا في نبرة سهلة بسيطة ودود ، تنفذ – حين تنفذ– إلى السمع والقلب جميعا ."[1] إذن فغزل عمر بن أبي ربيعة لون جديد في الشعر العربي ، لأنه في الحقيقة إنما يصور عواطف المرأة العربية التي تحضرت في العصر الأموى، إذ هو غزل بُنى على هذا الحوار القصصى الذي تحدثنا عليه من قبل ، " ولا ريب في أن عمر أوقلْ ديوان عمر ، يصور هذا التطور تصويرا طريفا ، فهو يقصّ علينا حبه ، ولكن لا نقرأ هذا القصص حتى نحسّ أننا بإزاء مجتمع متحضر ، تكاد تقطع الصلة بينه وبين مجتمعات البدو القديمة ، ففيه المرأة من الحرية

---

[1] الشعر الأموى د / محمد فتوح أحمد ص ١٨٧ وما بعدها ط قاصد خير القاهرة ١٩٧٧

ما لم تكن تتمتع به المرأة القديمة ، كما أن لها من الترف ومن الجواري اللائى يخدمنها ما لم تكن تتمتع به المرأة القديمة ، وفيه بجانب ذلك دلال المرأة المترفة وغزلها ونفسيتها بكل ما فيها من اضطراب وتناقض ، وفيه أيضا ما يصور حياة الشاب المترف ، حياة عمر وما أنطبع في نفسه لجماله وثرائه من زهو ودلّ ، وما تميز به من دقة الحس ورهافة الشعور "[1].

ومن هنا كان أسلوب عمر يخالف أسلوب الشعر القديم ، فهو أسلوب تكامل له تحت تأثير حياة متحضرة جديدة ، فيها ترف بالغ ، وفيها هذا الغناء الذي حوّله المغنون إلى نظرية كاملة ، وأن الشعر العربى عند عمر بن أبى ربيعة قد تطور وخاض مجالات أرحب وأوسع ، فقد أصبح مقطوعات بعد أن كان قصائد ، وأصبح يُتخذ من لغة قريبة ، لغة مألوفة للناس فيها هذا الاغراب الذي نجده عند الشعراء القدماء ، وليس فيها هذا التعقيد في التراكيب الذي نجده عندهم أيضا ، وهذا الجانب في شعر عمر أعطاه قربا من النفوس في كل عصر ، وهو من هذه الناحية لا يكاد قارئ يلمّ به حتى يحسّ كأن عمر قريب منه ،فهو يدنو من جميع العصور ، ومن جميع

---

[1] الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بنى أُمية للدكتور شوقى ضيف ص ٢٧١

النفوس ، ولهذا فقد استطاع عمر حقا أن يتميز من شـــعراء عصره والعصور التالية بهذه الروح القصصية النادرة التي قلما نصادفها في شعره العربية ، ونستطيع أن نقول بعد ذلـك : إن غزل عمر بن أبي ربيعة يشفّ عن شخصيه صاحبه ، وعـــن عصره ومجتمعه وكل ما فيه ، وما نعرف في العربيـــة شـــاعرا استطاع أن يعيش حياته في تصوير قصص الحب علـــى هـــذا النحو الذي نجده عن الشاعر عمر بن أبي ربيعة[1] .

١٠- والقصيدة التي نقوم بإلقاء الضوء عليها تدل دلالـــة قاطعة على شخصية الشاعر ، التي عُرف بها من حبه للمغـامرة وملاحقة المرأة للفوز بها ، فكثيرا ما قال الشعر لا هيا عابثا لا متولها ، وكثيرا ما جلس إلى الغانيات يتمتع بحديثهن ويشـــبع النظر من محاسنهن فهو ينتقل من امرأة لأخرى ، ومن حـــرة إلى جارية يصف محاسن هذه ومفاتن تلك ، ولقائـــه بهـــذه و مغامرته مع تلك ، ولا عجب فهو يملك الفراغ والمال ويعيـش في بحبوحة من العيش ، وكل هذا يهيئ لحياة اللـــهووالمجـــون والغزل والمغامرات العاطفية التي كانت سمة من سماته وعلامـــة مميزة لحياته .

---

[1] انظر : المرجع السابق ص ٢٧٢ وما بعدها

وتدل هذه القصيدة على أسلوب الشاعر وصناعته الشعرية من سهولة في العبارة وحسن الوصف ودقة المعنى واختيار الألفاظ الدقيقة المعبرة.

ويدل هذا النص على بيئة الشاعر وعصره ، فقد كان هذا العصر عصرا غزليا في جميع أطرافه يشغله الغزل ولا يزال شاغله الأول فوق كل شاغل سواه ، وربما عيب على الرجل أن يتجافي عنه ويتوقر منه كأنه مطالب به مدفوع إليه[1].

وقد شاع هذا اللون الماجن من الشعر في مدن الحجاز ، ولعل السبب في ذلك أن خلفاء بنى أمية احتجزوا هناك شباب الهاشمين وأغدقوا عليهم الأموال الطائلة وأغرقوهم بالخيرات الكثيرة ، وسلطوا عليهم الفراغ والغنى ليصرفوهم عن شئون الخلافة وسياسة الدولة ، فلما شرقوا بالنعيم وضاقوا بالفراغ انصرفوا إلى مجالس الغناء وتتبع النساء ومغازلة الحسان والتعرض لهن في كل مكان .

وهكذا شاع هذا اللون وذاع حتى شُغل الناس به ، وفتن النساء بروعته وسحره ، حتى كانت كل امرأة محجبة

---

[1] انظر : شاعر الغزل للأستاذ عباس محمود العقاد ص ١٧

محصنة تتمنى أن يُقال فيها شعر تتباهى به على أترابها وتفخر به على لداتها[١] .

****

تعليق عام على النص :

١- نتحدث الآن عن طبيعة الحب والغزل عند عمر بن أبي ربيعة ، فقد كان حب عمر بن أبي ربيعة مرآة صافية لشخصيته الغزلة وبيئته المتحضرة ونفسيته التي تنطوى على هذا المزاج الخاص المصقول التي هذبته مؤثرات البيئة المدنية المترفة ، ونرى هذا المزاج المبدع مزاجا تحليليا لا يقنع من الغزل باللفتة العابرة ، أو المقدمة العارضة ، أو الأبيات القليلة المنفردة ، بل يصور إحساسه بالمرأة ، ويصور كثيرا من رغباتها ومشاعرها وعلاقاتها العاطفية ، كما يصور نفسية الأنثى المتحضرة عاشقة ومعشوقه[٢] ، في تصوير يخلب اللب والفؤاد.

١- تاريخ الأدب في العصر الأموى د . محمد عبد المنعم خفاجى ص ٧٤ نشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٥ .

٢- انظر : الشعر الأموى للدكتور محمد فتوح أحمد ص ١٧٦ وما بعدها .

ولا ريب أن عمر بن أبي ربيعة لم يكن عذريا ، ولم يكن يريد أن يذهب مذهب العذريين ، وإنما كان رجلا عمليا يلتمس الحب فى الأرض لا في السماء ، وأنه لم يكن يذهب في حبه مذهب أصحاب المجون من شعراء العصر العباسي ، فلم يكن يسرف في العبث ، وإنما كان يقتصد اقتصادا ، ويتوسط في حبه توسطا ، فيعفّ كثيرا ، ويعبث قليلا ، وكانت ظروف حياته تكرهه على هذه العفة ، لأنه لم يدع امرأة شريفة من قريش إلا شبّب بها ، وما كان له أن يتجاوز العفة في هذا التشبيب ، وأن عمر لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه ، وإنما كان يحب بحسّه وبحسّه ليس غير ، وكان موكلا بالجمال والحسن يتبعهما أينما حل وسار .

وما من شك في أن عمر بن أبي ربيعة كان صديقا للمرأة بالمعنى الحديث الذي نفهمه لصداقة المرأة ، وكان يريد لها من الحرية ما يريده للرجل ، وكان يريد أن تكون صلة الغزل بين الرجل والمرأة صلة ظاهرة لا حرج فيها ولا جناح ،وكان يريد أن تزول الفروق بين الجنسين وألا يكون بينهما حجاب ، وعمر بن أبي ربيعة لم يكن يتصور المرأة إلا على أنها مكملة للرجل ، لا يستطيع العيش بدونها ، كما أنها لا

تستطيع أن تعيش بدونه ، ومن ثَمّ فشعر ابن أبي ربيعة كلـــه ليس الا تغنيا بجمال المرأة وحسنها وتأثيرها في حياة الرجـــل ومكانها من نفسه، ولهذا كان يتبع النساء جميعـــا بحبـــه ، لا يكاد يدع امرأة إلا ليعرض لأخرى ، وربما اشتغلت نفســـه في وقت واحد بغير هذه المرأة ، ذلك لأنه لم يكن عذريـــا ، لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه ، إنما كان يحب بحسّه ، كما ذُكـــر آنفا ، ولم يكن حسّه يطيع قلبه فيرى الجمال فى صاحبته ويميـل إليها ، وإنما كان قلبه طوع حسّه ، فكان يكفي أن يرى جمـال المرأة ليخلع عليها ما يشاء من الصور الرائعة الخلابة ، وأنـــه لن يسلو عنها ، وأنه لم يحب غيرها ، وكان صادقا في هـــذا كله ، حتى يحب امرأة جديدة حبا جما ولن يجـــد ســـبيلا إلى الانصراف عنها ، وهكذا دواليك ، وأن النساء كن مفتونات به ، وكان لا يكاد يسمع ثناء امرأة حتى يستهويه ثناء امـــرأة أخرى، فكان طمعه متصلا وأمله لا حدّ له [1].

ونقطة أخرى لابدّ من تسجيلها عن عمر هنا ، فقـــد " حوّل الغزل من الرجل إلى المرأة ، فالصورة العامة في غزله أنه

---

[1] انظر:حديث الأربعاء د / طه حسين ١/ ٣٠٨ وما بعدها ط دار المعارف القاهرة .

معشوق لا عاشق ، وعمر في ذلك يعبّر عن تطور جديد في الحياة العربية ، فقبله لم نكن نعرف شاعرا يصبح شخصه موضوع الغزل في غزله ، إنما شخص المرأة هو الموضوع المعروف للغزل ، وبعبارة أخرى : كانت المرأة قبل غزل بن أبي ربيعة هى المعشوقة ، أما في غزله فقد تحولت إلى عاشقة ، كما تحول عمر نفسه من عاشق إلى معشوق "[١] .

وهكذا كان الذوق العربي العام لا يمنع أن يشيد شاعر كعمر بن أبي ربيعة بجمال المرأة ويصف حسنها ومفاتنها ، ولهذا أخذ عمر بن أبي ربيعة يستغل هذا الذوق العام ، ويبعد في استغلاله لا في فتيات مكة ونسائها ، بل في فتيات العرب جميعا ونسائهم ممن يحججن إلى مكة وتقع عينه عليهن ، وكأنما كانت عينه (عدسة مكة) في هذا العصر ، فلا تمر سيدة تستحق أن تُصور وأن تُرسم في المرآة الفنية ، إلا وتهب عين عمر فيسجل صورتها بريشة فنان بارع ، ورسام حاذق ، ومن هنا كنا نقرأ عنه دائما أشعارا وقصصا عن جميلات حجاج البيت الحرام ، وأصبحت مواسم الحج مواسم للشعر والفن ، تُرسم فيه صور العذارى والسيدات الجميلات ، حتى أميرات

١- التطور والتجديد في الشعر الأموى د / شوقى ضيف ص٢٢٩

البيت الأموى كن يُرسمن ويُصورن ،وكن يطلبن ذلك [١]، من الشعراء وعلى رأسهم ابن أبي ربيعة.

٢- أن عمر ابن أبي ربيعة به جانب من (إنعكاس العاطفة) ، فقد رأيناه في أكثر مواقفه يجعل العاشق معشوقا والمعشوق عاشقا ، فعهدنا بالرجل أنه العاشق الذي شفّه الوجد ، وعهدنا به كذلك أنه الذي يطلب إلى صاحبته ألا تطيع في الهوى أمر الوشاة ، وألا تقطع حبل الوصال ، بل عهدنا به أنه الذي يتحدث عن حسنها ويطرى جمالها وعذب حديثها ،ولكن ابن أبي ربيعة في ذلك كله قد عكس الآية ، فالمرأة فى شعره هى التي تتحدث عن جماله وفتنته ، وهى التي تتمنى منه نظرةً وتحذره من الوشاة)[٢] ، وتذرف الدموع ولعا وصبابة ، وكم من نساء كن يُفتن به ، ويتصدين له ، وينتهزن كل فرصة للقائه ، ويشرن له باليد حينا وبالعين حينا ، ويغمزنه بالكف ، ويسعين إليه ويطلبن ودّه وقربه ، ومع ذلك لا يلتفت لهن دلالا وتيهاوإعجابا بنفسه وجماله ، ولكن

---

[١] انظر:الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بنى أمية د / شوقى ضيف ص ٢٤٦ وما بعدها .

[٢] روائع الأدب د / محمد نبيه حجاب ص ٦٢

ما السر في إعجاب عمر بنفسه ؟ ومـــا الســـر في هـــذه (النرجسية) الواضحة ؟ لاشك أن ذلك راجع للنشأة التي نشأ عليها عمر في حياته الخاصة من أم تعيش له وتعشقه ، ومـــن دلال وترف وإعجاب بالغ بالنفس ، ومن ثراء جمّ ، استطعنا أن نفسر عشقه المفرط لذاته ، واستطعنا أن نفهم سرّ هـــذه النزعة (النرجسية) الواضحة في غزله ، والتي خرج بها علـى مألوف الشعر العربي من أن المـــرأة مطلوبـــه لا طالبـــة ، ومعشوقة لا عاشقة ، وأن الرجل هو الذي ينبغي أن يســـعى وراءها ويتذلل إليها ويطلب ودها ووصالها ، وليس العكس ، ومن شعره نقرأ الكثير من هذه المعاني ، ونذكر هذه الأبيـــات الدالّة كمثال على ذلك حيث يقول[1] :

تقول وعينها تُذرى دموعـا ... لها نسق على الخدين يجرى
أَلست أقرّ من يمشى لعينـى ... وأنت الهم في الدنيا وذكـرى
أمالك حاجة فيما لدينـــا ... تكن لك عندنا حقا فـــأدرى
أمن سخط علىّ صددت عنى ... حملتَ جنازتى وشهدت قبرى
أشهرا كله إلا ثلاثـــــا ... أقمت على مصارمتى وهجرى

١- ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٨٢ .

فالمرأة هنا هى التي تذرف الدموع ولعا وصبابة ، وهى التي تسترضيه وتستلين عواطفه بالكلام العذب والضراعة الباكية والتشكى الملتاع والدعاء على النفس بالويل والثبور إن كانت قد أغضبته فصدّ عنها وهجرها ، وهكذا تترفق المرأة في التماس الطريق إلى قلبه [١] وتتمنى نظرة الرضا منه إليها ، وتتمنى القرب منه والسكن إليه .

وصفوة القول : إن ظاهرة الإعجاب بالذات إلى درجة الخروج على المألوف عند الشاعر عمر بن أبى ربيعة تقترب من (النرجسية) كما عرفها علماء النفس . كان عمر شديد الغرور ، فهو شديد الإعجاب بآبائه وثرائه ، شديد الإحساس بهيام جميلات عصره و طلبهن له ، فهو المعشوق لا العاشق ، وهو المطلوب لا الطالب، تتمنى النساء جميعا رؤيته وحديثه ويبكين إن أظهر الإعراض ، وتكون مناحة لهن يوم يتزوج ، إنه المغامر الجميل وحلم النساء " قد عرفناه وهل يخفي القمر "[٢]

---

[١] انظر: الشعر الأموى د / محمد فتوح أحمد ص ١٩٢

[٢] نزار قبانى وعمر بن أبى ربيعة (دارسة في فن الموازنة) د . ماهر حسن فهمى ص ٤٠ دار النهضة مصر للطبع والنشر القاهرة.

٣- نلاحظ أن الشاعر عمر بن أبي ربيعة في هذه القصيدة يكثر من وصف المحاسن البارزة عند المرأة الفاتنة، من الفم البسّام والعينين الدعجاوين والخدّ الناضر المرتوى برحيق الصبا والشباب ، ولا سيما إذ كانت هذه المفاتن والمحاسن للمرأة التي يفوح أريجها ، ويدل على مكانها ، ويعدّ الحديث عن هذه المحاسن والمفاتن أمرا طبعيا عند شاعر كعمر بن أبي ربيعة وهو خبير بالجمال متيّم به ، فالفم والعينان أجمل ما في المرأة الحسناء وأدلّ الأشياء عليها ، ثم أنهما يخرجان من الثبات إلى الحركة اللطيفة ، نراه في مثل قوله من الرائية:

فبتّ قرير العين أُعطيت حاجتي ... أقبّل فاها في الخلاء فأكثر

يمجّ ذكى المسك منها مفلج ... نقى الثنايا ذو غروب مؤشر

يرفّ إذا يفتر عنه كأنه ... حصى برد أو أقحوان منوّر

وترنو بعينيها إليّ كما رنا ... إلى ربرب وسط الخميلة جُؤذر

وهو يكثر من الحديث عن (الخدّ) لأنه مما يقبّل ، فلصاحبته خدان كالأرجوان أو شقائق النعمان ، و ما أحلى الخدّ عندما تبتسم ،

ونراه في مثل قوله من الرائية :

فآخر عهد لى بها حين أعرضت ولاح لها خدّ نقى ومحجر

أما حديثه عن العطر فهو يتفق مع الثراء الذي كان فيه الشاعر ، ومع طبيعة الترف والرفاهة الذي عمّ طبقة الشاعر ، ثم إن أهله عملوا في تجارة العطور ، وعندهم الكثير من أسرارها ، ويقوم العطر بأكثر من دور فهو الذي يدل الشاعر على مكان الحبيبة[1] ، ونراه في مثل قوله من القصيدة :

فدلّ عليها القلب ريّا عرفتها لها وهوى النفس الذي كاد يظهر

هنيئًا لأهل العامرية نشرها (م) اللذيذ وريّاها التي أتذكر

وهكذا كأن الشاعر خبيرا بفن الجمال ، له في عالم الحسن صولات وجولات ، حيث وصف فمها (أى مقبّلها) وهو يفوح منه المسك بأنه نقى الثنايا مجلو الأسنان وله بريق ساحر أخّاذ يأخذ اللب والفؤاد،كما وصف عينيها الساحرتين اللذين يشبهان عينى الظبية البراقتين ، كما وصف خدّها النقىّ الناضر الذي يترقرق فيه ماء الشباب بأنه كشقائق النعمان ،

---

[1] مجلة الشعر (العدد العاشر) ص ٨١ وما بعدها بحث د . عبده بدوى بعنوان (دراسة في نص لعمر بن أبى ربيعة) .

كما وصف عبيرها الفواح الذي لا يُنسى أبدا ، حيث أحسّ الشاعر بالانتعاش والمتعة ، كلما هلّتْ وأشرقت وعطرت المكان بنشرها الأخّاذ .

٤- بعد هذا العرض والتحليل لهذه القصيدة الرائعة من شعر عمر بن أبي ربيعة نستطيع الحكم عليه ، هل هذا الشاعر عفيف أم غير عفيف ؟

لقد اختلف الأدباء حول هذه القضية ، فهذا هو الدكتور / طه حسين يرى أنه مضطر إلى أن يتوسط بين الذين يزعمون أن عمر كان مسرفا في الفجور ، والذين يزعمون أنه كان مسرفا في العفة ، فيرى أنه لم يكن مسرفا في اللهو ، كما أنه لم يكن مسرفا في حسن السيرة ، ويرى أنه كان صادقا كل الصدق حين يؤكد أنه لم يقدم على الحرام ، ولكن صدقه هذا مقصور على طائفة من شريفات قريش وغير قريش ، ويضرب الدكتور / طه حسين الأمثال على ذلك فيقول " فليس من شك في أن صلته بأخت عبد الملك وبنته وبسكينه بنت الحسين ولبانة بنت عبد الله بن عباس وعائشة بنت طلحة كانت طاهرة كل الطهر بريئة كل البراءة من الإثم ، كانت لفظية ليس غير "

ثم يشير الدكتور / طه حسين إلى أن عمر لم يُقدم على غرام مع هذه الطبقة من النساء ، وأنه ليس مع بعض الرواة الأقدمين حيث يقولون : إنه أنفق حياته يصف ولا يقصف ويحوم ولا يرد،فقد كان عمر مسرفا فى وصف اللهو مقتصدا فى اللهو نفسه ، ومن زعم أنه صادق حقا حين يقسم ما أقدم على حرام فهو مخدوع ، ومن زعم أنه صادق حقا في أنه فعل كل ما قال فهو مخدوع أيضا [1].

ومع إيماننا بكلام الدكتور / طه حسين في كل ما قال ، إلا أننا نجد الدكتور / شوقى ضيف لم يعرض لهذا الأمر بالتفصيل كما فعل الدكتور / طه حسين ، وركز على أن ابن عباس كان يحفظ كثيرا من شعره ، وأن ابن عباس كان يعرف أن عمر كان يقصّ كعادة القصاصين الذين يعتمدون على الخيال حيث يقول :" ولعلّ هذا غاب عن القدماء فقد اضطربوا في عمر : عفيف هو أم غير عفيف ؟ ونسوا أن ابن عباس كان يحفظ كثيرا من شعره ، كما قدمنا في غير الموضع ، وكأنه

---

[1] انظر:حديث الأربعاء د . طه حسين ١/٣٠١ .

عُرف أن عمر إنما يقصّ ويحاول أن يبرز – كعادة القصاصين – العناصر العاطفية في المجتمع"[١]

ونستطيع أن نقول كما قلنا سابقا : أن عصر ابن أبي ربيعة كأن عصرا غزليا في جميع أطرافه ، وربما عيب على الرجل أن يتجافي عنه ويتوقر منه ، فما من عالم ولا فقيه ولا أمير ولا شريف في هذا العصر إلا كان له من رواية الغزل والاستماع إليه نصيب موفور.

وهناك رأى ثالث للدكتور / محمد فتوح أحمد في هذه القضية حيث يقول :" وقد تكفل الرواة من جانبهم بتكملة الصورة ، فأخذوا ينسجون حول اسم كل امرأة ورد ذكرها في شعره خبرا مطولا أو قصة طريفة أو نادرة مستملحة تصور الشاعر خليعا بالغ الخلاعة ، فاسقا شديد الفسق ، يتعقب النساء في مسارب مكة ودروبها ، ويتربص لهن وراء كل ثنية ، وخلف كل منعطف ، فيزعج حياءهن ، وينال منهن أحيانا ما لا يسمح به دين ولا خلق كريم .

وحتى لو أخذنا كل أخبار عربدته مأخذ الجد ، فإننا نجد بجوارها روايات تذكر فضله وعفته وتحرّجه وخلقه ،

١- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بنى أمية ص ٢٦٥

والترجيح في هذه الحالة لا يتأتى إلا باستخدام منطق العقل والعاطفة جميعا.... وقد سئل الشاعر ذات مرة : أكل ما قلته في شعرك فعلته ؟ فأجاب : نعم واستغفر الله [١] ولكن هذا الاعتراف يقابله اعتراف آخر من الشاعر يقول فيه : ما كشفت ثوبا عن حرام قط [٢] ، واعترف ثالث يوحى بصدقه – إن صح الخبر – أن الشاعر قاله وهو على فراش الموت ، إذ يروى أنه لما مرض مرضه الذي مات فيه جزع أخوه الحارث جزعا شديدا ، فقال له عمر : أحسبك إنما تجزع لما تظنه منى ، والله ما أعلم أنى ركبت فاحشة قط ، فقال الحارث : ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك وقد سليت عنى[٣] ،وإذا كان اعتراف عمر على هذا النحو مظنة لأنه من باب تزكية الإنسان لنفسه ، فربما اطمأنت ضمائرنا إلى بعض صدقه – على الأقل– إذا أخذنا في الاعتبار شهادة أحد الرواة الذين يثق بهم صاحب الأغانى وهو :

---

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ١/٧٥

(٢) المصدر السابق ١/٧٧

(٣) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ١/ ٧٧

الزبير بن بكار الذي يقول :" لم يذهب على أحد من الـــرواة أن عمر كان عفيفا يصف ويقف ويحوم ولا يرد[١] " ، وليـــس أدق من هذا القول ولا أرفق منه في بيان أن بعض ما يـــرد في شعر عمر وأخباره إنما هو من باب التظرف واللعـــب الفـــنى بالألفاظ والمشاهد والأحداث ، إذ كان كما توحى به عبـــارة ابن بكار يقنع من الجمال بوصفه ، ويكتفي من المتعة بالتحليق والتهويم ، وهذا – في باب الانصاف – أمر قد تقتضيه طبيعة الخيال الشعرى وطبائع الشعراء ، ولا يخرج الأديب المبـــدع عن حيز المقبول في منطق العاطفة والشعور إلى حيز " الشذوذ " وقد تستطيع لهذا أن تصف الشاعر – وكل شاعر – بأنـــه غير عادى ، لأنه يتمتع بوجدان مرهف يلتقط ما لا يلتقطـــه الوجدان العادى ، فيضخمه ويبالغ في تصويره ، ولكنـــك لا تستطيع وصفه " بالشذوذ " إلا إذا حكمت علـــى المبدعـــين جميعا بأنهم شواذ لأن لهم منطقا شعوريا خاصا في التعامل مـــع الوقائع والأحداث ومظاهر الوجود بعامة " [٢]

١- المصدر السابق ١١٩/١

٢- الشعر الأموى د . محمد فتوح أحمد ص ١٩٦ وما بعدها

وهذا الرأى قد نقلناه برمّته كاملا – تتمة للفـــائدة – حـــتى نوضح رأى الناقد في هذه القضية ، فقد حاول الدفاع عـــــن الشاعر عمر بن أبي ربيعة الذي اشتهر بالغزل ، وكان رائـــدا من روّاده ، غزلا بكل ما تحمله الكلمة من معنى .

" والحمد الله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانـــا الله " وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،،

أ . د / على محمد طلـــــب
أستاذ الأدب والنقـــد
وعميد كلية اللغة العربية بأسيوط